العرب
الأربعاء 2021/10/27
السنة 44 العدد 12222

انقلاب كامل الدسم

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

يروى عن حسني الزعيم الذي قاد أول انقلاب عسكري في سوريا ضد شكري القوتلي في عام 1949، أنه أراد أن يختبر نباهة أحد المجندين فطلب منه أن يعدد على مسامعه الرتب العسكرية. طفق المجند يعدد الرتب من الأعلى إلى الأدنى حتى وصل إلى المجند البسيط الذي لا يحمل أي رتبة وسكت. سأله الزعيم الانقلابي "لماذا سكت؟". رد الجنديّ: لأنه ليس هناك من هو أدنى رتبة من الجندي سيدي.

قال الزعيم: بلى.. هناك من هو أدنى منه، وبكثير، وهو المدني.

ليس هناك من هو أدنى من المدني، بنظر العقلية العسكرية التي تولت الحكم في الكثير من البلدان العربية منذ أواخر أربعينات القرن الماضي.. هذه قناعة راسخة لا تكاد تقبل النقاش لدى هؤلاء الذين يحبون الحكم حبا جما، وخاضوا معارك ضد شعوبهم أكثر من تلك التي خاضوها ضد الخارج بل إن أغلبهم لم يخض حربا إلا ضد شعبه.

يستحضر المرء هذه النظرة القاتمة للمؤسسة العسكرية في غالبية البلدان العربية وهو يراقب بشيء من اليأس والقنوط، الانقلاب العسكري الذي حصل في السودان صباح الاثنين الماضي، وبدأ باعتقال الجيش لرئيس الوزراء عبدالله حمدوك ومعظم أعضاء حكومته والعديد من المسؤولين والعاملين بقطاع الإعلام.

بلية تدخل الجيش بالسياسة لم تنج منها إلا أنظمة جمهورية قليلة في العالم العربي مثل تونس الجارة الشرقية للجزائر التي يعربد فيها جنرالات الفساد منذ الحركة الانقلابية التي يصفها البعض بـ«المحمودة»

استلام الجيش للسلطة في السودان كان متوقعا بل ومنتظرا في بلد تعدّ فيه الانقلابات العسكرية جزءا من "تراثه السياسي"، وذلك على الرغم مما قدمته الوثيقة الدستورية من تطمينات على إثر الثورة التي عصفت بنظام عمر البشير، وهلل لها العالم.

منذ استقلالها عن الاحتلال البريطاني عام 1956، شهدت جمهورية السودان العديد من الانقلابات العسكرية، لعل أبرزها تلك التي قام بها الرئيس السابق عمر البشير في 1989 على حكومة الأحزاب الديمقراطية برئاسة الصادق المهدي، والتي مهّدت له حكم البلاد طيلة 30 عاما.

هل سيعود السودان لنقطة الصفر، وهل قدر هذا البلد الطيب الذي تنهكه الأوضاع المعيشية الصعبة والنزاعات الداخلية أن ينصاع لأمزجة العسكريين الذين يتداولون السلطة فيه بشكل عمودي، وفي صورة كاريكاتيرية تثير السخرية رغم قتامة المشهد.

ما سر هذا العشق العسكري للسلطة ورغبته في إدارة دواليب الحكم، في حين كان الأجدر به أن يحمي حدود بلاده، ويشرف على مؤسسته خلف أسوار الثكنات وليس من مكاتب القصور الرئاسية؟

الأمر لا يتعلق بالسودان نفسه بل ببلاد أفريقية وعربية كثيرة، بالإضافة إلى مثيلاتها في أميركا الجنوبية أي في البلدان التي ترزح تحت الفقر والخلافات القبلية والطائفية والإثنية.

هنا نكون قد مسكنا طرف الخيط، إذ أن ما حصل من انقلابات في هذه البلدان، إنما هو انقلاب فئة أو طائفة أو قبيلة ضد أخرى، علاوة على خلط كل هذه الحساسيات الإثنية بالأحزاب والأيديولوجيات كما حصل في سوريا والعراق وليبيا، ستينات وسبعينات القرن الماضي.

وما زال الأمر مستمرا والحبل على الجرار، يضاف إليه تدخل خارجي كما هو الحال في بلدان مثل اليمن، لبنان حيث تعربد فيه الأطماع الإيرانية بصيغ انقلابية لا تختلف إلا في لون البزة العسكرية.

ولا يختلف اثنان في أن لكل انقلاب عسكري حاضنة سياسية، فالجيش السوداني في رأي الكثير من المحللين، لم يكن في يوم من الأيام حاكما فعليا للبلاد، بقدر ما كان هناك قادة عسكريون يُدفعون نحو شغل منصب الرئاسة خدمة لأجندة تيار من التيارات السياسية، والدينية، وحتى الطرق الصوفية.

الجنرال إبراهيم عبود مثلا، والذي كان أول من انقلب عام 1958 هو ومجموعة من الضباط على حكومة ائتلافية بين حزب الأمة والاتحادي الديمقراطي، كان ممثلا للطائفة الختمية، وهي إحدى الطرق الصوفية الأكثر انتشارا في السودان. والعقيد جعفر النميري كان في بدايته مجرد ممثل للتيار اليساري الشيوعي القومي الذي هيمن في سبعينات وثمانينات القرن الماضي، أما عمر البشير، فهو بطبيعة الحال خادم للتيار الإخواني الذي برز كأقوى تيار سياسي في السودان منذ نهاية الثمانينات.

السودان لا يختلف من حيث ظروفه الاقتصادية والسياسية عن أي بلد عربي آخر يسعى للاستقرار ولا يعيشه، يصبو إلى الديمقراطية ولا يدركها، لكن مؤسسته العسكرية لها من التاريخ وقوة التكوين والحضور على المسرح السياسي ما يؤهلها أكثر من غيرها لتصدر المشهد الإعلامي عبر تلاوة بياناتها بعد احتلال مباني الإذاعة والتلفزيون أكثر من سبع مرات في محاولات انقلابية "ناجحة" وأخرى "فاشلة".. وأجمل الانقلابات هي ما فشل منها بطبيعة الحال.

يأتي السودان الثاني عربيا بعد سوريا من حيث عدد الانقلابات، على الرغم أن بعضهم يرى أن أول انقلاب في المنطقة جرى في العراق في العشرين من أكتوبر 1936 ونفذ من قبل الفريق بكر صدقي، رئيس أركان الجيش العراقي وقتها، وكان في عهد الملك غازي بن فيصل.

استطاع الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد أن يضع حدا لسلسلة الانقلابات التي حطمت الرقم القياسي، وذلك عبر انقلابه سنة 1970، والذي آل فيه الحكم للطائفة العلوية تحت مسمى الحركة التصحيحية، في مزج بين أيديولوجيا البعث، والخلفية الطائفية للضابط العلوي المحنك سياسيا.

هذه البلية المتمثلة في تدخل الجيش بالسياسة، لم تنج منها إلا أنظمة جمهورية قليلة في العالم العربي مثل تونس، الجارة الشرقية للجزائر التي يعربد فيها جنرالات الفساد منذ الحركة الانقلابية التي يصفها البعض بـ"المحمودة" والتي قادها هواري بومدين ضد أحمد بن بلة عام 1965.

فكرة ارتباط الانقلابات بقوى خارجية عظمى أمر وارد لكنه ليس صحيحا دائما، فـ"دود الخل منه وفيه" كما يقول المثل العامي ثم إن ممارسة العمل السياسي في العالم العربي تأتي مع الرقص على ظهور الدبابات.

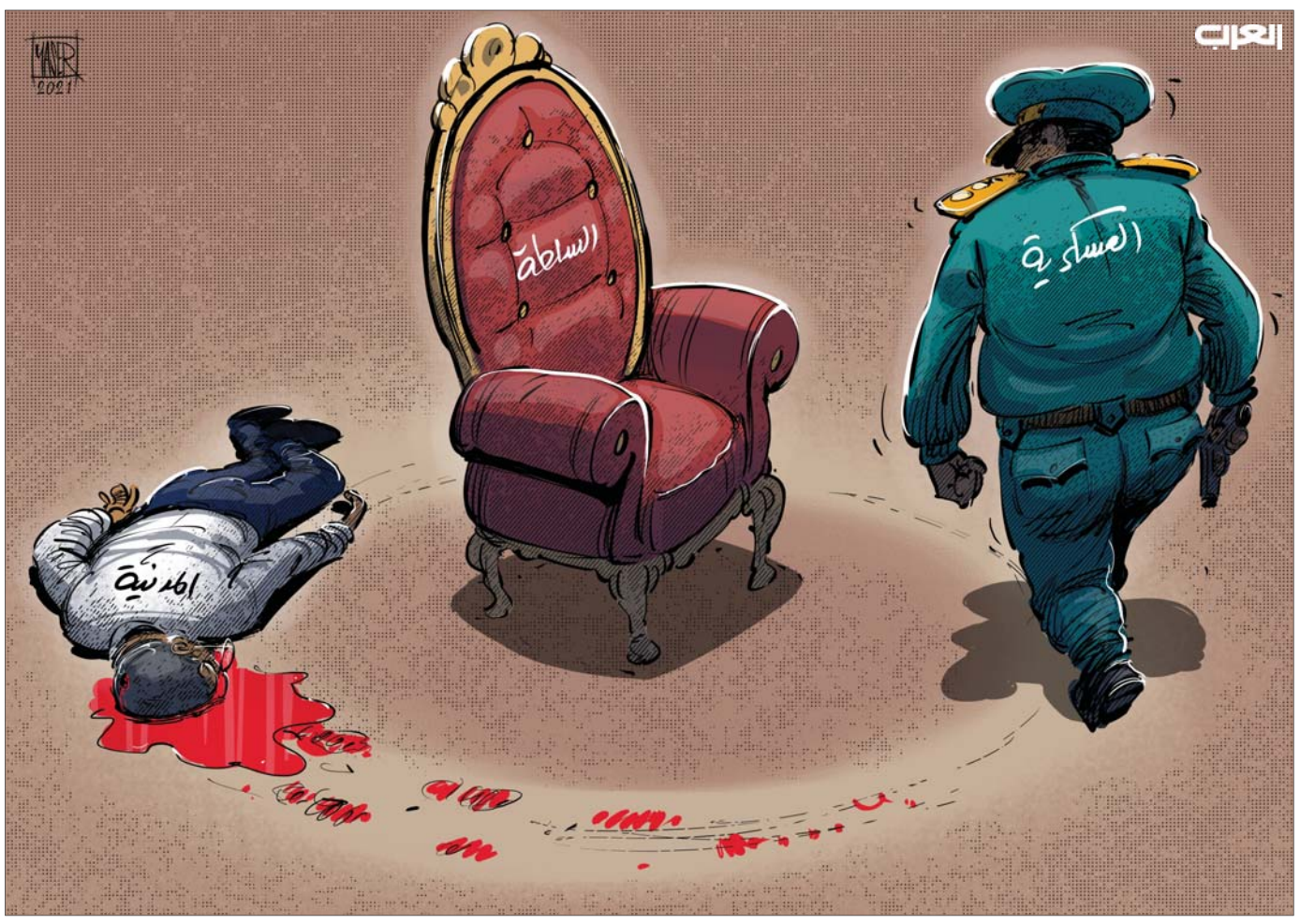

لا مشروع غير السلطة... لدى عسكر السودان

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

لم يشذ عسكر السودان عن القاعدة. وعدوا في بيانهم الرقم واحد الذي أعلنوا فيه عن تفردهم بالسلطة والانتهاء من حكومة عبدالله حمدوك بإجراء انتخابات عامة صيف العام 2023... تمهيدا لتسليم السلطة إلى المدنيين!

لماذا لا يسلمون السلطة إلى المدنيين الآن ولماذا قرروا التخلّص من المكوّن المدني في السلطة واستبداله بحكومة جديدة لا تضم سوى اختصاصيين؟ لا أجوبة عن مثل هذا النوع من الأسئلة باستثناء أنّ العسكر يريدون السلطة ويريدون حكومة تحت وصايتهم المباشرة ليس إلّا.

هل لدى العسكر في السودان مشروع آخر غير السلطة التي يعشقونها عشق الإخوان المسلمين لها؟ الأهمّ من ذلك كلّه، ما سيطرح نفسه في الأسابيع القليلة المقبلة. سيظهر مدى تأثّر الضباط الذين استولوا على السلطة، وأزاحوا المكوّن المدني منها، بتجربة عمر حسن البشير التي استمرت ثلاثة عقود (1989 – 2019) وأخذت السودان إلى خراب على كل الصعد.

لم يكن لدى البشير من همّ آخر غير السلطة. استطاع التلاعب بزعيم الإخوان حسن الترابي. استخدمه غطاء في مرحلة معيّنة قبل أن يتخلّص منه ويدخله السجن تمهيدا لإعدامه. تدخّل الرئيس اليمني الراحل علي عبدالله صالح، الذي كانت تربطه علاقة قويّة بالبشير، مرتين لإنقاذ الترابي من حبل المشنقة!

بالنسبة إلى البشير، كان كلّ شيء يهون من أجل السلطة. يستطيع أن يكون مع إيران و"حماس" ثم ينقلب عليهما فجأة. كان مع تركيا التي لديها أطماعها المعروفة في السودان وفي البحر الأحمر... وكان ضدّ تركيا في الوقت ذاته. سلّم البشير الإرهابي الفنزويلي الأصل كارلوس إلى فرنسا من أجل استرضاء الغرب بعدما ضاق عليه الخناق. وعندما وجد نفسه محشورا في زاوية، ذهب إلى استفتاء على انفصال الجنوب. أصبح الجنوب السوداني دولة مستقلة في التاسع من تموز – أيلول 2011. خرج من الاستفتاء خاسران، شمال السودان وجنوبه الذي لا يزال يبحث عن استقرار داخلي على الرغم من مرور عشر سنوات على إعلان الاستقلال.

ثمّة عادة متبعة لدى العسكريين الذين ينفذون انقلابات عسكريّة. لا تخلو بياناتهم الأولى من كلّ أنواع الوعود. حتّى الباكستاني ضياء الحق الذي انقلب على ذو الفقار علي بوتو في العام 1977، تمهيدا لشغل موقع رئيس الدولة العام التالي، وعد بانتخابات عامة كي يصلح ما أفسده بوتو. كانت النتيجة أنّ نظامه الذي استمر عشرة أعوام والذي انتهى بمقتله في حادث سقوط طائرة في ظروف غامضة، أسّس لباكستان مختلفة. نقل ضياء الحقّ البلد إلى حال من التزمت الديني قضت على كلّ ما له علاقة بثقافة الحياة في باكستان التي كانت في الأساس بلدا إسلاميا معتدلا تأسّس، على يد محمد علي جناح، من أجل حماية المسلمين في الهند. ما أسسه ضياء الحق أنتج كلّ أنواع المتطرفين، بما في ذلك "طالبان" التي خرجت أصلا من المدارس الدينية الباكستانية وتوجهت منها إلى أفغانستان.

ليس معروفا إلى أين سيأخذ البلد كبار ضباط الجيش السوداني، الذين حسموا أمر نظام حسن البشير. هل لا يزال الزمن يصلح لانقلاب عسكري... أم أنّ السودان يبقى حالة شاذة في ضوء التجارب التي مرّ فيها منذ استقلاله في العام 1956؟

كلّ ما توحي به هذه التجارب أنّ السودان، بأحزابه السياسية المعروفة، تأرجح دائما بين الحكم المدني والحكم العسكري. ليس سرّا أنّ المدنيين بادروا من أنفسهم إلى تسليم السلطة إلى العسكر بعد عامين على الاستقلال. كان ذلك في العام 1958.

منذ استقلّ السودان في العام 1956، يلجأ المدنيون إلى العسكر في كلّ مرّة يثبت فيها فشلهم في إدارة البلد... ويلجأ العسكر إلى واجهة مدنيّة بين حين وآخر بغية تغطية عجزهم عن ممارسة الحكم وإيجاد حلول للأزمات الاقتصادية والسياسيّة المتلاحقة.

في العام 1958 سلّم السياسيون السلطة إلى العسكري إبراهيم عبّود بعد ما اكتشفوا أنّهم غير قادرين على ممارسة مسؤولياتهم. ما لبث عبود نفسه، وكان برتبة فريق، أن وصل إلى طريق مسدود في العام 1964. كان كافيا نزول المواطنين إلى الشارع وإطلاق شعار "إلى الثكنات يا حشرات" كي ينتهي زمن العسكر وكي يعود المدنيون إلى السلطة التي ما لبث أن تسلّمها انقلابي أرعن عديم الثقافة اسمه جعفر النميري. بقي النميري في الرئاسة حتّى العام 1985 قبل أن يضطر إلى التنازل في ضوء ترهّل بلغه السودان على كل صعيد. لم يكن النميري يعرف ما الذي يريده. بدأ عهده بشعارات عروبيّة بالية، من النوع الذي استخدمه قبله جمال عبدالناصر، وانتهى بالبحث عن طريقة يسترضي بها الإخوان المسلمين الذين نخروا المجتمع مستفيدين من حال التسيّب التي سادت في السنوات الأخيرة من حكم النميري ومن الدور التخريبي الذي لعبه الترابي وقتذاك.

إلى أين سيأخذ البلد كبار ضباط الجيش السوداني هل لا يزال الزمن يصلح لانقلاب عسكري... أم أن السودان يبقى حالة شاذة في ضوء التجارب التي مر فيها منذ استقلاله في العام 1956

بعد فترة قصيرة من الحكم المدني، نفّذ ضباط إسلاميون كان يرعاهم زعيم الإخوان المسلمين الترابي في منتصف العام 1989 انقلابا عسكريا. كان ذلك من منطلق شعار أنّ "الإسلام هو الحلّ". خرج البشير على طاعة الترابي ومارس حكما عسكريا مباشرا أنهته في العام 2019 ثورة شعبيّة يرفض كبار الضباط الاعتراف بها وبحقها في تشكيل سلطة تكون بالفعل السلطة المسؤولة عن إدارة شؤون السودان وإعادة بناء اقتصاده وإيجاد حلول لمشاكل في غاية التعقيد من نوع مشكلة شرق السودان.

اتخذ السودان منذ إيداع عمر البشير وأركان نظامه السجن خطوات عدة تميّزت بالجرأة، خصوصا في مجال الانفتاح على العالم ودول المنطقة والتخلص من العقوبات التي فرضت على البلد. لكنّ كلّ هذه الخطوات تبدو ناقصة في غياب تفاهم في العمق بين المدنيين والعسكر. تبيّن أن الوصول إلى مثل هذا التفاهم مستحيل...

إذا لم يمتلك العسكر مثل هذه القناعة، التي تفضي إلى وقف الابتزاز للمدنيين والقبول بنوع من توزيع للأدوار في ما بين الجانبين العسكري والمدني، سيبقى السودان في دوامته الأزليّة. تهدّد الدوامة السودانيّة بالمزيد من الأزمات والانقسامات الداخلية التي لن يعثر لها عن حلّ مهما بذل المجتمع الدولي من جهود من أجل مساعدة السودان وتمكينه من استغلال ثرواته الكبيرة.